جوته

للأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تابع

عاطفة الغضب والعنف :

طبيعي أن أقوال جوته هذه هي عين التشاؤم ، ولكنه أساساً كان راضياً بالوضع القائم ؛ لأن روح المسالة كانت بعيدة عنه . وعلى النقيض من ذلك كان يشعر شعوراً جارفاً بالقوة والنضال « كي يتمكن الإنسان أن يتفوق على أخيه » وهذا يذكرنا بقول (فاكنر) : « عند ما تتحرك القوة بدون خوف يعجبني المجلس الحربي كثيراً » . زد على ذلك أنه كان يعترف بذلك جهاراً وهو القائل « إنني أشعر بالتعاسة عند ما أكون متصالحاً مع الآخرين » وهناك شواهد كثيرة يمكن استنتاجها من قناعته وسروره بالعنف والعقاب واستعداده لاسكات الآخرين بالقوة الناشئة « ونبذ أضراب هؤلاء الناس من المجتمع المتمدن »

إن الشئ التعس حقاً والمزعج للوطنيين الذين كانوا يسعون لتثقيف ألمانيا وتحريرها سياسيا أن يكون الشاعر في طليعة الناهضين لهم والمقاومين لمكرتهم التحررية ، وما أن وافاه الأجل المحتوم حتى شعر الناس براحة بالغة وتنفسوا الصعداء لخلاصهم من هذا الكابوس ، وعلى الرغم من اعتقاده بأن الحرية لا يمكن أن تعني شيئاً للأرقاء ؛ فإنه سمح لنفسه بالمزيد منها بصورة لا محدودة ولا موصوفة ولا مدركة ، حرية كاملة ، حرية كانت تتشكل بجميع الأشكال وكانت تطالب بالاطلاع على كل شئ وأن تدرك كل شئ ، وعلينا أن نتذكر أنه لم يكن كتاباً بل إنساناً مفعماً بالتناقضات ، إنساناً عظيماً ذا متناقضات هائلة وقد أحب أن يدعو نفسه « مناهضاً للمسيحية بعناد وتصميم » . ولم يترك فرصة لا يظهر فيها وبأسلوب الأوثر .. كراهية الوثنية « للصليب » كما فعل نتشه بعاطفيته الشديدة ضد الأخلاق المسيحية ، ولو أن ذلك لا يمنعنا من ملاحظة طبيعته الطيبة ، وكذلك الحال مع فوته الذي ناصر الوثنية ، وهذا الانتصار للوثنية لا يمكن أن يعارض حقيقة وجوده الروحي ، والتي كانت تقر بالثورة الادراكية . ولعل خير دليل على ذلك قوله « إن كل نوع من الألم فيه عنصر إلهي » . وطبيعي أن نقول أن الرجل الذي يتكلم بمثل هذه اللغة لا يمكن إلا أن يكون مسيحيا ، بالرغم من أنه عارض ذلك مئات المرات وقال : « إن الانخذال والتألم ليسا من طبيعته في شئ » وقد أعلن بلهجة شديدة قاسية ذات يوم « أن الإنسان له حرية في الحياة بأن يكون إما مطرقة أو سنداناً » .. وقوله « يظهر لي أنه من الخير أن يكون الإنسان مطرقة من أن يكون سنداناً » وهو أمر مألوف منه ، ولكن الذي يدعو إلى التهمن لرضاه « تحمل الضربات المتوالية الأبدية » .

والآن ننتقل إلى شعاره الجديد والمعروف بـ « النفور » فقد ظل ملازماً لكتاباته كما كانت « الحرية » شعار (شلر) و « الفداء » شعار واكنر ، وكل شئ يدعونا للتردد باعتبار هذا الشعار شعاراً وثنيا على الرغم من إيمانه بالقوة والنضال لأن قوله : « أن الحرب في الحقيقة مرض عجز عن معالجته نطس الأطباء وهي مخالفة للسنن الطبيعية » رد بليغ على إيمانه بالقوة . أما مسيحيته كعامل ذي أهمية كبرى في تكوين شخصيته فقد كانت تعود بالدرجة الأولى إلى تربيته البروتستانتية .. وقد استرعى انتباهه بصورة جدية ترجمة لوثر للكتاب المقدس فعلق على ذلك بقوله « إنني أتمكن أن أضيف على ترجمة لوثر ولكن بصورة أحسن » ولكن البروتستانتية لم تثبت أمام حدة نقده بل نراه ينبذ ذلك ويلتجئ مرة إلى مدح القوة البدنية أو يلتجئ إلى الكاثوليكية للوحدة الديمقراطية مرة أخرى فيقول « يجب أن يكون الإنسان كاثوليكيا كي يتمكن أن يشارك العامة في عيشه وأن يختلط بهم ويتعرف على مشاكلهم وأن يكون واحداً منهم يشاركهم في السراء والضراء »

سريان التناقض في جميع أعماله ومؤلفاته :

ضعه أينما شئت من طبقات التفكير أو الوجود — استناداً على الشواهد التي لا تقبل الجدل — فستجده حتما في الطبقة الناهضة المعارضة ، وهذا من مميزاته حتى في مواقفه الخلقية مثلا ، وموقفه فيما يتعلق بالزمن نفسه لا يختلف عن ذلك في شئ .

فتراه متباطئاً متكاسلا حيناً وتراه مراعيا جهده الوقت حيناً آخر تحت شعاره المألوف « ما أغنى إرثي وما أروعه . إن الوقت هو ملكي وأرض حصادي » . أما من الناحية الفنية فقد كانت مؤلفاته تناقضاً غريباً بحذافيرها ، فبينما تراه يمثل نفسه تمثيلا موضوعيا « أيوليا » في سخريته ، تجده في الوقت ذاته فنائيا واعترافيا ، يرسم بأغانيه صورة نفسه ويعبر عنها أحسن التعبير .

واملنا بوصفنا إياه كمعترف ومكفر عن ذنوبه نصيب كبد الحقيقة من أن نصفه بأية صفة أخرى ، ولنا الآن أن نتصرف على ذلك بصورة إجمالية ، كيف كان يشرح حياته ويبين الأهواء التي كانت تتنازعه ؟ يمكننا الإجابة على هذا السؤال باطلاعنا على نقاط الضعف في حياته وكتبه : — فانتحار (فرتر) وخيانة (كلافيكو) وهسترية (تاسو) ودعارة (إدوارد) وخبث (فرناندو) في مؤلفه (استيلا) دلائل ناطقة على سلوكه

إن الإنسان ليعجب عند ما يلاحظ سهوره وسخريته من أدب (المستشفى) ورغبته في تغيير ذلك بأدب روحي سام عوضاً عنه . ومع ذلك فقد كان له (مستشفاه) الخاص ، وفي (مستشفاه) هذا يجد اعترافه وضمنه الإنساني باديين بكل جلاء ، حتى أن مؤلفيه (مايستر) و (فاوست) يبدوان وكأن الوهن قد أصابهما في جوهريهما وهما لا يعدان شيئاً بالقياس إلى الرجولة المثالية التي امتلكت على الشاعر مشاعره

وعلى الرغم من أن ميزة الرجولة لا تظهر بوضوح في كل هذا النتاج المتنوع كما هي الحال مع (شلر) إلا أن النزعة الروحية الإنسانية بادية في كل ما كتبه بصراحة تدعو إلى الإعجاب وبأمانة تفوق الوصف وبدقة لا متناهية ، وفي كل ما كتبه يظهر طابع سحر شخصيته بصورة بارزة ، بحيث يمكننا أن نقول وبحق أن الابداع الأدبي جميعاً قديمه وحديثه لا يوازيه بقوته وسحره . وكمثال على ذلك أحب أن استعرض تمثيليته (أكونت) . هذه التمثيلية التي كانت مثاراً للتقدم من الناحية الدراماتيكية وحتى الناحية الفنية المحضة . ومع خروج هذه التمثيلية على جميع نظم المسرح إلا أنها تتسم بجمال فتان ، بأخلاق بطلها ، ذلك البطل صاحب النزعة الأرستقراطية والشعبية معاً . وما من شك أن روح اللامبالاة الرقيقة التي تسري في مسارب هذه التمثيلية تظهر

فوته على حقيقته بجميع رغائبه وشخصيته ، والتي هي في نظري أوج الكمال التي ارتقى إليه سحر فوته — تجد ذلك في أكثر مؤلفاته كما تجدها في علاقته اللاعاطفية مع (كلارجن) ؛ تلك الفتاة الصغيرة التي كانت من عامة الشعب واخت (كرجن) التي عرض لها نفسه بلباسه الملكي الاسباني وهو يحمل المدالية الذهبية لمجرد غرامه بآهاتها وزواهاتها .. وهنا نجد (نرجسيته)[1] التي تتمثل في حبه للفتيات الساذج اللائي كان يعتقد بأنهن يمثلن عالم الروح والحب ، ولم يربط نفسه بهن إلا برباط الغرام المؤقت ، هذا الرباط الذي لم يكن إلا طارئاً ينثره غبار الزمن فينحل وكأنه لم يكن. أما فكرة الزواج فكانت هي نفسها فكرة خيالية عابرة كحبه

حياته الغرامية :

كانت حياة فوته في الحب فصلا غريباً ، والتنوع للثقافة العامة يجبر على التصرف بشؤونه الغرامية لكي يكون انطباعه عنها صحيحاً لا تشوبه شائبة ، فألمانيا في الأيام — التي نحن بصددها — كانت مسارًا لهذه الحوادث ، وليس لدارس غوته إلا تعداد هذه الحوادث كما كان يفعل (زيوس) . إن هذه الحوادث أضحت الآن تماثيل في (كاندرائية) الانسانية ، وأما ركوعه وخضوعه أمام (فردريكا) و (مريانه) و (لوته) وتذلله أمام أقدامهن — وهن ما هن عليه من سيطرة ونفوذ — فلم يدم طويلا لأنه رأى في كل ذلك إهانة لنفسها وحطا من قدرها ، فتمرد على هذه العواطف الهوج وخرج مما تورطه به مفعماً شهامة وبأساً ، وربما كان في هذه الحوادث مايعوض من تناقضه الذي كان ينتابه وولاؤه الذي كان أبداً ما ثلا إلى الانهيار . لأن حبه — في الحقيقة — لم يكن إلا ضرورة ووسيلة لغاية ، تلك الغاية التي تتمثل في عمله الأدبي

كتب مرة إلى (لوته) قائلا ... إنك لا تشعرين بفرتر كما يجب وإنما الذي تشعرين به هو أنا ونفسك . وإذا كان في إمكانك أن تشعري بواحد من ألف مما يعنيه فرتر إلى الآلاف القلوب لقدرت المتاعب التي تحملتها في سبيل التعبير عنه » .

(١) صحبة الفتيات الصغار وهو شذوذ جنسي

وطبيعى ألا تفهمه النساء ولكنهن تحملن عيشه اضطرارا

نظم غوته الشعر منذ البداية على الطريقة الفرنسية والإيقاع اليونانى القديم، وكان شعره موهوبا منسجماً مع روح العصر، فيه خفة ورقة وعذوبة. وقد أصبح بتطور الزمن شاعراً يشار إليه بالبنان فى دستر اسبورغ، بتأثير هردر. وكان لاتصاله بهوميروس واسيان وشكسبير، وخصوصاً بالأخير الذى كان معجباً به أشد الإعجاب فى جميع أدوار حياته، وولعه بالكتاب المقدس وبالغناء الشعبى أثر هائل فى توجيه حياته الأدبية وتنمية روح الطلاقة والانطلاق والصفاء فيه. أصبح هردر بفضل تملمه وعمق إدراكه وغريزته النقدية القائد الأدبى للثورة التى طافت على ألمانيا سنة ١٧٧٠؛ ولكنه كان يعوزه سر العظمة الملهمة والسحر الأدبى واللطف الإنسانى، التى كان تلميذه غوته يتمتع بها جميعا، وهذا هو الذى جعل الشاب اليافع يبز أستاذه ويتفوق عليه. وإنى أعتقد أن هردر شعر بذلك ولم يتمكن من مغالبته المرارة التى أحدثتها تصاريف الأيام فى نفسه. ليس فى إمكاننا الآن أن نشعر بمقدار الاستفزاز الذى حدث فى ربيع العبقرية، والعاصفة التى أثارتها قصيدته (مرحباً وإلى اللقاء) وكيف أن سياق القوافى وتيارها الجارف بعثر ما تبقى من رماد زيف الشاعر الواقعى هردر، كما أن قصته (غوتس فون بيرلنجن) كان لها الوقع نفسه، تلك القصة التى هزت المسرح بأسلوبها الشكسبيرى وبعرضها الألمانى القديم، وقد وصفها فردريك الكبير بقوله «إنها جنون لا شكل له» ونبذها، ولكنها مع ذلك حازت سمعة هائلة باستفزازها وتحديها لجميع النظم الشعرية وسخريتها بما تواطأ عليه الشعراء، فوصفها غوته نفسه بأنها أحدثت رضا شعبيا شاملا وذلك فى كتابه «الشعر والحقيقة». ثم تأتى بعد ذلك إلى بعض المشاهد الأولى من (فاوست) فنجد أصدقاءه يصفقون والمداد لم يكد يجف، ويتحدثون بفرح متزايد «عن الشخص الذى ينمو بصورة منظورة»

أما (آلام فرتر) تلك القصة التى انطوت بطابع الرسائل فلم تقتصر على أصدقائه والمقربين إليه أو مدرسته الخاصة ولا حتى على بلاده ألمانيا، بل تعدتها إلى العالم فاحتضنها كما احتضنته هى. ولا ريب أن العاطفية الواهنة الخجلة التى أبدع فى جلائها هذا الكتاب الصغير، هى التى جلبت إلى مؤلفه مقت الأخلاقيين بالرغم من إخلاصها الطبيعى، وأثارت فى الوقت نفسه عاصفة من الاستحسان اللامحدود من قبل الشباب. إنها كانت كالشهاب الذى سقط فى مستودع مفرقعات فأحدث انفجاراً للقوى الخطرة التى كانت متحفزة للانطلاق. ويبدو أن الرأى العام فى جميع الأقطار كان ينتظر — وبصورة سرية — هذا الكتاب من شاب ألمانى مغمور فى المدينة الإمبراطورية.. ومن الغريب أن نابليون نفسه كان يحتفظ بالترجمة الفرنسية لهذا الكتاب فى الحملة المصرية. لم يتمكن غوته أن يجرب نجاحاً عاصفاً كما جربه فى هذا الكتاب، فإنتاجه الذى شغله طوال حياته لم يقابل بمثل الحماسة التى قوبل بها هذا الكتاب

أما كتابه (ولهلم ما يستر) فقد لاقى رواجا كبيرا وعد من وجهة النظر الفنية — أى من وجهة النظر الرومانسية — بمصاف الثورة الفرنسية ونظارية (فخته) فى العلوم. وعلى أى حال فإن هذا التأثير يمتد إلى (سترفتر) و(كلر) و(الجبل السحرى) ولكنه يعد الثانى بالنسبة إلى (فرتر) فى مدى نجاحه، وهذا ينطبق بالفعل وبصورة أوسع على كتابه (القرابة المنتخبة) وأشخاص روايته هذه يمثلون رموزاً ويبادق فى لعبة ثقافية تدعو إلى التفكير العميق... أما كتابه (الديوان الشرقى المؤلف الغربى) والذى احتوى على مالا يثمن من جواهر غوته فقد ظلت طبعته الأولى فى المكتبات مكدسة بدون أن تلاقى أى رواج يذكر

أنهى غوته القسم الثانى من فاوست بجهد جهيد وتعب شديد، لأن قوته البدنية كانت فى تدهور مستمر؛ وقال بخصوص ذلك ما يلى: «إن هذه الأوقات مخيفة جدا لدرجة أنها أقنعتنى بأن جميع مجهوداتى المضنية المخلصة سوف لاتجازى، بل سيرمى بها على ساحل البحر! وستحطم هناك إلى أن تغطى برمال الشرف»..

تأثير فاوست العالمى

نشرت بعض القطع من القسم الثانى من فاوست فى حياة

غوته وخصوصاً ملحمته (هيلين) التي نشرت في جميع المجلات الفرنسية والأسوجية والروسية» وقد عاق على ذلك غوته بقوله: «إن الأدب الوطني لم يعد له مكان يذكر في عصر الأدب العالمي، وإن كل شخص يجب أن يبذل جهده الاسراع بإيصال هذا العصر إلى ذروة غوته»

كيف أدمج العالم بذاته؟ وكيف أثر فيه؟ ماذا أعطته كل من إنكلترا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا والشرق الأقصى وأمريكا؟ وكيف أثر في الحياة الثقافية لهذه البلدان جميعا؟ كل ذلك وأكثر من ذلك يشرحه لنا المؤرخ الأدبي (فرتر سترخ) في كتابه (غوته والأدب العالمي) «والذي[1] لايزال أكبر مصدر في دراسة غوته.» وقد قال أمرسون بخصوص فاوست ما يلي: وإن الشيء البارز في هذا الكتاب هو الذكاء الهائل. إن ذكاء هذا الانسان محال جبار للعصور القديمة والحاضرة على السواء، بما فيها من الأديان والسياسة وأساليب التفكير؛ محال لها إلى عناصرها وأفكارها البسيطة». فهذا الذكاء الهائل وهذه الإحاطة الشاملة والتنظيم الدقيق والعقل الممتزج بالشاعرية، كانت تمثل فكره الجبار الذي كان ينبض بمشاعر المستقبل بشجاعة خارقة. ومن الغرابة أن نتصوره وقد تحدى الموت بادراكه للمستقبل وبتوقه له، وهو لا يزال في دور الصيرورة والتكوين، ليس في الناحية الاخلاقية والظاهرية وحسب، بل حتى في الناحية العملية، هذا التوقع الذي كان واجب كل شخص الإسراع بإمداده والتهيؤ لاستقباله والعمل على إبرازه إلى حيز الوجود. وفي الحقيقة فإن كتابه (رحلة ولهلم مايستر) الذي وضعه في أواخر أيامه - يتضمن فكرته الأساسية وهي (النفور). أما مثله الأعلى المتقمص في فكرة (الشخصية الكونية) فنراها تذبل تدريجاً حتى تسقط نهائيا من مؤلفاته الأخيرة فيحل محلها العصر الإجتماعي، وأما ما نجده في هذا الكتاب فهو عدم أهلية الفرد للقيام بما يتطلبه المجتمع منه كفرد، ولذا فاجتماع الناس هو الذي يكون مفهوم الانسانية، وعلى ذلك يصبح الانسان عثابة عمل وأهميته تبرز لكونه يقوم بدور فعال في سبيل الثقافة الاجتماعية.

وكذلك يظهر مفهوم الجماعة بوضوح وجلاء من طريق إحلال العلاقة الاجتماعية محل الفردية الضيقة

وليس من شك في أن عمره الطويل — على وقاره — لم يتطرق إليه الجفاف ولا التصلب، فقد كان مفعما بالحساسية والدهشة والاستمتاع بالحياة ورفع شأن الأفكار العصرية. وقد كان الحديث الدائر على مائدة سيد القرن الثامن عشر لا يتعدى نطاق الأفكار الطوبائية والمشاريع العمرانية، كحفر قنال لإيصال المحيط الهادي بخليج المكسيك وحفر قناة أخرى لإيصال البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر. وقد كان يؤكد دائماً ذلك بقوله: «وإن تحقيق هذه الأشياء يستحق مني العيش خمسين سنة أخرى». أما ثقته بالمستقبل فقد كانت تحتضن العالم كله، وأما حماسته فكانت نتيجة لشعوره بالقيمة العملية للحقائق العلمية وتأثيرها في نبذ الأفكار الغيبية التي كان العالم متأثراً بها ومريضا بسببها فحمى جهده لتخليصه منها. وقد نظم كل هذه المشاعر ببيته القائل «إي أمريكا! إن حياتك أحسن من حياتنا هنا في القارة، فأرضك لا تموقها الصخور ولا القباب القديمة الخربة» وجميع هذه القباب هي من آثار (السخافة القديمة[1]) التي يمقتها أشد المقت، وكان يصر على تهديمها كي يحب الانسان الحياة على اعتبار هذه الآثار من الناحية المعنوية — كانت تمثل في نظره الرجعة الماطية (السخافة) التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل التقدم البشري، وقد تأمل شاعرنا من فجر حياته لتحطيم أحزاب هذه السخافات لما لها من تأثير في العقول؛ يبدو ذلك من قوله في كتابه ولهلم مايستر (إنهم لا يخافون شيئا كخوفهم من الفطرة السليمة، ولكن عليهم أن يخشوا السخافة التي هي الحول بعينه: ولكن الفطرة السليمة تعرقل مساعي المحقين مآربهم فعليها السلام ولتترك جانبا، ولتقدم السخافة ما يحلو لها وما عليك إلا أن تجلس وتنتظر)

ومع ذلك فغوته لم يجلس ولم ينتظر بل صمد (وقف) بشجاعته وبأسه يجالد ويناضل في سبيل إبادة هذه السخافة، وفي سبيل تثبيت أركان الفطرة السليمة. أليس اتجاه السخافة هذه

(١) من كلام المترجم

(١) يقصد المؤلف أموراً ما وراء الطبيعة (المترجم)